فلسفة نيتشه

للأستاذ زكي نجيب محمود

لسنا نحسب أن داروين، حينما أذاع رأيه في تنازع البقاء وبقاء الأصلح، كان يدور في خلده أن ذلك الرأي سيكون له من العمق والسيطرة الفكرية ماله اليوم، وأنه لن يقتصر على الأحياء من نبات وحيوان، بل سيتعداها الى كل لون من ألوان النشاط الانساني: فأساليب الحكم، والدين، والأدب، والفن، والفلسفة، كل هذا وما هو أدق من هذا وأجل، يحاول الكتاب الآن أن يخضعوه اخضاعاً لقانون تنازع البقاء. فلسنا لانسرف في القول اذا زعمنا أن داروين هو رب الفكر الحديث، يأتم بخطاه آلاف المفكرين والكتاب، وأصبح بقاء الاصلح غرض الرمي في الكثير الغالب من أبحاث العلم والفلسفة والفن جميعاً.

وفلسفة نيتشه هي واحدة من تلك الفلسفات العديدة التي يرجع نسبها إلى قانون داروين. فقد استولد نيتشه ذلك القانون واتخذ منه مقدمة، ثم استخرج فلسفته كنتيجة لازمة لتلك المقدمة. ولم يجد التردد إلى نفسه سبيلا في إذاعتها في الناس على خطورتها وأثرها مما وقعت من نفوسهم.

مادام قانون تنازع البقاء وبقاء الاصلح يسيطر على كل مظاهر الحياة، فلا بد للواهن الضعيف أن يخور ويتلاشى، ولا بد للقوة في كل شيء أن تظفر آخر الأمر. وإذاً فالمثل الأعلى للفضيلة هي القوة دون سواها، والضعف هو علة العلل وآفة التقدم. فأيا كانت الأخلاق التي تثبت قدمها في معترك البقاء، فهي الفضيلة وهي الخير، وأيا كانت الأخلاق التي تخور قواها فتسقط صريعة في الميدان لتخلي الطريق لسواها فهي الرذيلة وهي الشر.

هكذا يبدأ نيتشه منطقه ثم يتابع هذا المنطق الى نهايته، حتى يصل آخر الأمر إلى نتيجة خطيرة كل الخطر: إلى نبذ المسيحية بل إلى نبذ الأديان جميعاً مادامت تنشر مبادىء العطف والايثار والاستسلام؛ ثم ينادي بدوره بوجوب القسوة والقوة والعنف لأنها قوية، ولأنها أقدر على البقاء.

الانسانية في حياتها وفي تقدمها تحتاج إلى القسوة دون الرحمة، وإلى الكبرياء دون التواضع، وإلى الذكاء والسيطرة دون الايثار. أما هذه المساواة والديمقراطية التي اتجهت إليها الشعوب في التاريخ الحديث، فانما تقف عقبة كؤوداً في سبيل الانتخاب الطبيعي للبقاء.

فليس في الكثرة العديدة والجموع البشرية كان الانسانية المنشود. ولكن في الصفوة القوية العبقرية وحدها. وإذاً فليس من المنطق في شيء أن تكون المساواة أساس الاجتماع. تلك المساواة التي تحد من قوة القوى، وتضيف الى الضعيف قوة مصطنعة أبتها عليه الطبيعة. فلتنبذ الديمقراطية نبذ النواة، ولتخل الطريق أمام القوة لكي تستطيع أن تتبوأ مكانها وتتحكم في أعناق الجماهير. وليكن المثل الأعلى في الحكم هو بسمارك وأشباهه الذين يسوسون الشعوب بالنار والحديد

السوبرمان

أراد نيتشه ان يقوض بناء الأخلاق السائدة من أساسه، ليقيم على أنقاضه بناء خلقياً جديداً. أراد أن يبيد هذا النوع الانساني ليخلق ضرباً آخر من الانسان قوياً عنيفاً ذكياً كما يريد: هو السوبرمان (الانسان الأعلى).

فقد شهد التاريخ نوعين مختلفين من الأخلاق: أخلاق نبيلة سامية، كانت شعار الشعوب القديمة، وبخاصة الرومان. اذ كانت الفضيلة تعني الرجولة والجرأة والشجاعة، وأخرى وضيعة دنيئة ظهرت في الشرق، اصطنعها اليهود اصطناعاً أيام ضعفهم. حيث الفضيلة عبارة عن مجموعة من صفات ترجع في أصولها الى الخور والاستكانة والذل. فالخضوع قد خلق التواضع خلقا. والعجز كون الايثار تكويناً. وهكذا نسج القوم حولهم نسيجاً من الأخلاق الهزيلة الخائرة يدرعون بها حيث لامقدرة لهم ولا سلطان، ونزعت النفوس الى السلم والتماس النجاة، بعد أن كانت تلتمس مواضع القوة والخطر: فحل الخداع والمكر محل القوة، والاشفاق والعطف مكان الصلابة والعنف، وجاء التقليد دون الابتكار والانشاء، وقام الضمير حكماً يلتجأ اليه مقام التفاخر بالشرف.. فالشرف وثني، روماني، ارستقراطي: أما الضمير فأثر من آثار اليهودية فالمسيحية فالديمقراطية:

ويقول نيتشه إن الأنبياء استطاعوا بما أوتوا من قوة الشخصية وسحر البيان أن يزينوا للناس ذلك النوع الهزيل من الأخلاق، حتى رسخت في نفوسهم وأصبحت عقيدة ليس الى نبذها من سبيل. فانقلبت الأوضاع، وأصبح الفقر والضعف هما جوهر الفضيلة، والقوة والثراء عنوان الرذيلة.

وقد بلغ هذا التقدير الخلقي أقصى حدود التقديس أيام المسيح الذي جعل الناس جميعاً سواسية، ومن هنا اشتق العصر الحديث مبادئه الديمقراطية والاشتراكية، التي يعتقد نيتشه أنها الطريق

المؤدية الى الدمار والخراب

ولكن الطبيعة تأبى الا أن تهدى الانسانية سواء السبيل، فزودتها بارادة غريزية لاتخطىء ولا تطيش لها سهام، فأنت اذا أمعنت النظر فى الطبائع البشرية، أيقنت أن هذه الأخلاق السائدة من عطف ورحمة وايثار وتضحية وما الى ذلك، ليست الا ستاراً رقيقاً يخفى وراءه دافعاً غريزياً يتملك من الانسان قياده. نعم اذا أنت أمعنت فى تحليل النفس الانسانية، وجدت «ارادة القوة» مستقرة فى صميم الأعماق، تسير بالانسان حيث تشاء. أعنى أن الانسان يلتمس القوة والسيطرة فى كل ما ينزع اليه من أعمال وما يجيش فى نفسه من مشاعر، وهذا الحب الذى يتخذه كثيرون دليلا على الايثار بحجة أن التضحية فيه واضحة لاتحتاج الى دليل، هو فى أعماقه رغبة فى التملك، فما يبذله المحب فى سبيل حبيبه يدفعه ثمنا للسيطرة على مخلوق آخر!! بل يزعم نيتشه أكثر من هذا فيقول إن من يتفانى فى البحث عن الحقائق، لايصرف جهوده فى سبيل الله من دونه. بل هو فى الواقع يحاول أن يمتلك الحقائق قبل الآخرين.

وارادة القوة هذه تملى على الانسان ألوان الفلسفة وشتى ضروب الفكر، فنخطىء واهم من يحسب أنها تمثل الحقائق الواقعة. انما هى صورة منعكسة لرغباتنا، فالفيلسوف لايضع المقدمات الصحيحة ثم يستنبط منها حكمه، ولكن الفكرة تنشأ وتتكون فى ذهنه أولا ثم يجىء بعد ذلك المنطق الذى يبررها.

فهذه الرغبات الغريزية المستترة وراء تلك الحجب الكثيفة من الأخلاق الظاهرة، هذه «الارادة للقوة» هى التى توجه ميولنا وتكون آراءنا.

فالمنطق اذاً ثوب رياء نخدع به أنفسنا، أو بعبارة أخرى، تتخذ «ارادة القوة» من المنطق مبرراً لأعمالها أمام العقل الادراكى، ولكن الرجل القوى لايحاول أن يستر ارادته وراء هذا الستار المنطقى الشفاف. الرجل القوى لايعرف الا منطقاً بسيطاً ينحصر فى كلمتين، هما: «أنا أريد» ومتى أراد فلا حاجة الى التماس المبررات. ولكن جاءت المسيحية فعكست الأوضاع الطبيعية، وأصبح الرجل القوى يستحى من قوته، ولا بد له من البحث عن منطق لرغباته. وبذلك أخذت الأخلاق الارستقراطية القوية الصالحة تذوى وتندثر. ونهضت قطعان الشعوب تقيم على أنقاضها صرحاً جديداً للأخلاق التى تلائم ضعفهم، وليس من سبيل الى الشك فى أنه اذا أرغمت أنوف الأقوياء، وأخذت السوقة تتبوأ مكان الزعامة من الانسانية، فهى سائرة بخطى حثيثة الى الدمار والفساد. ونحن لسنا بحاجة الى أن نقول اذا كانت الشفقة والرحمة والسلام خيراً. فليست الصراحة والعنف والحروب بأقل منها نفعاً للمجتمع الانسانى. وبديهى أن هذه الأخلاق قد دافعت عن بقائها طوال العصور. ولم تبق الا لأنها نافعة وصالحة. ولولا أن «الشر» خير لاختفى من الوجود. فمن الحق أن ننشد خيراً مطلقاً. بل لابد للأخلاق أن تتطور فى الخير والشر على السواء. أى لابد للخير والشر أن يقفا جنبا الى جنب، وأن يأخذ كل سبيله الى الارتقاء.

السوبرمان

مادامت الأخلاق تنزع الى القوة فى تطورها، فغرض الانسانية لا يجوز أن يلتمس فى السمو بالطبقات جميعا. وانما يلتمس فى تكوين نخبة قوية صالحة: فى تكوين السوبرمان، ومن العبث أن ينصرف المجهود البشرى نحو اسعاد السوقة. بل يجب أن يتجه بكل قوته نحو ابادة هذا النوع من البشر. وايجاد نوع أعلى مرتبة فى الأخلاق؛ وانه لخير للانسانية ألف مرة أن تتلاشى وتندثر من الوجود اذا لم تكن سائرة نحو تحسين النوع والارتقاء به. فليس المجتمع غرضا فى ذاته. انما هو اداة لزيادة قوة الفرد ونمو شخصيته. وهذا الفرد القوى السامى هو السوبرمان. الذى يؤمل نيتشه أن يخرج من أحضان الانسان الحالى. وهو لايعتمد فى ذلك على الانتخاب الطبيعى، بل يريد أن يتعمد تكوينه بوسائل التربية، لأنه لاحظ أن تطور الحياة الطبيعى لا يعمل على ايجاد الفرد القوى الممتاز، وأن الطبيعة أقسى ما تكون على خيرة أبنائها. فلا سبيل الى السوبرمان الا بالانتخاب الصناعى والأخذ بوسائل اليوجنية، والتربية الكاملة. وهو يقترح لتحقيق ذلك أن نعنى بزواج الرجال الأقوياء من نساء ذوات قوة ممتازة. حتى لايكون الزواج لمجرد التكرار. بل أداة للتسامى. فاذا ماأنتج ذلك الزواج نسلا، أعددنا له مدرسة خاصة تروضه على القسوة والعنف والجرأة والشجاعة. لايتردد فى تنفيذ أغراضه مهما اعترض سبيله من عقبات، غير عابىء بشر أو بخير؛ فليس الخير الا مايزيدنا شعوراً بالقوة. وليس الشر الا ماتخور معه العزائم.

الارستقراطية

الارستقراطية وحدها هى الطريق الى السوبرمان، فيجب أن نمحق الديمقراطية من أصولها، وأن نحطم فى سبيل ذلك المبادىء

الشعب بأسرها لأنها والديمقراطية صنوان

الديمقراطية معناها الدمار. معناها أن يتصرف كل جزء من الكل العضوى كيفما شاء. معناها التحلل والفوضى. معناها استخفاف بالعبقرية والنبوغ. معناها استحالة ظهور العظماء. اذ كيف يخضع العظيم لمهزلة الانتخابات. وهذه الشعوب تنبذ النفوس الكبيرة الحرة الجريئة نبذ الكلاب للذئب الجسور ؟ نعم تنبذ النفوس الثائرة على القيود والعادات. والتى لولاها لظلت الانسانية حيث بدأت فى ركود مميت. فكيف السبيل الى استنبات السوبرمان فى مثل هذه التربة الجدباء ؟ كلا ! لا سبيل الى ذلك فى مثل هذا المجتمع الذى يرفع على أكتافه رجل الأغلبية دون الرجل العبقرى العظيم. فى مثل هذا المجتمع الذى يحاول عبثاً أن يسوى بين أفراد جعلتهم الطبيعة درجات بعضها فوق بعض.

واذا كان نيتشه ينادى باقتلاع الديمقراطية وتحطيمها. فهو بالتالى يسخر من الاشتراكية لأنها وليدة الديمقراطية وربيبتها. فاذا كانت المساواة السياسية عدلا. أفلا تكون المساواة الاقتصادية عدلا كذلك ؟

لا ! العدل أن لا مساواة بين الرجال. والطبيعة نفسها تأبى هذه المساواة وتسعى جهدها فى تباين الأفراد والطبقات والأنواع.

الحوت الكبير يلتهم السمك الصغير. هذه سنة القوة وخلاصة الحياة : فلتكن كذلك سنة الانسانية ومثلها الأعلى فى الأخلاق بغير مواربة ولا رياء.

نقد

يدعو فردريك نيتشه الانسان الحالى الى الفناء والتضحية بنفسه فى سبيل السوبرمان. ومن التناقض الظاهر أن يصدر عنه نداء بالتضحية فى الوقت الذى يؤكد فيه أن الأخلاق القوية الصحيحة هى التى تدور حول الأنانية والاعتزاز بالنفس ! كيف تريدنى على انكار نفسى وتمهيد الطريق لسواى. أستغفر الله بل تدعونى الى اخلائها وتركها لمن هو خير منى. وفى هذا من الاستكانة والضعف مايعود نيتشه فينكره أشد انكار : ولم لا أثبت أنا فى الميدان ؟ ولم لا أكون أنا السوبرمان المنشود بعد اصلاح ما اعوج من طبيعتى ؟ كذلك يريد نيتشه أن يقوض الأخلاق السائدة التى تعتمد على الرحمة والايثار والعطف، ويقول ان ذلك سلاح خلقه الضعيف خلقاً ليتقى به شر القوى وقسوته : وكم كنا نود أن نسأله كيف تغلب الضعيف حتى سادت آراؤه وأصبحت أخلاقا معترفا

... وأين كانت الارستقراطية [illegible] عندما هبت صفوف الشعب فى وجهها هذا السلاح الرهيب ؟

الحق الذى لا شك فيه أن النزعات والأخلاق جميعا قد فرضها القوى على الضعيف فرضا. فان كان بها من الوهن شىء فلا تقع تبعته إلا على عاتق القوى الذى يروج لحكمه سنته

زكى نجيب محمود

أثر الثقافة العربية فى العلم والعالم

(بقية المنشور على صفحة ١٠)

ضحية لخطأ الحكم فى الماضى وسوء الفهم فى الحاضر ؟ أن الثقافة اليونانية وهى أقدم من العربية لاتزال تستغل. وأن الأدب الأوربى ليستمد من روحها قوة ومن قديمها جدة. وأن ثقافة العرب وهى عصارة اذهان الشعوب وخلاصة أديان الشرق حرية أن تبعث فى آدابنا القوة وفى أخلاقنا الفتوة وفى نهضتنا الطموح والحركة على أن هناك صفحات ناصعات من هذه الثقافة فى الخلق والأدب والفن سنجعلها موضوع محاضرة أخرى فى فرصة أخرى ...

احمد حسن الزيات

طبعت هذه المجلة

بمطبعة فاروق

٢٨ شارع المدابغ بمصر

وهى برهان عملى على اتقان العمل والمحافظة على المواعيد

المدير : محمد عبد الرحمن — خريج جامعة لندن